بين الحقيقة والخيال

المزارعون العارفون بالصناعات كلها !!

من مقال للكاتب الانكليزى المشهور

ويلفرد روبرتسن

وقفنا بك فى العدد الماضى من «المزرعة» عند المزارع الرودينى وهو يحترف طب الجسوم والجراحة . وفى هذا العدد نحدثك - كما وعدنا - عن المزارع ، كصياد ومهندس ورجل بوليس :

من عديد الحرف التى يجب على المزارع الرودينى أن يكون عارفاً بها ، حرفة الصيد ؛ ليس صيد السمك . . . ولا صيد الفئران ، ولكنها صيد الأسود والفهود التى تتجول بزئيرها فى الغابة ، غير المحدودة ، والتى تقوم بغزوات دورية على الماشية السارحة فى المزرعة .

وأنا مثلا ، لم يكن جديداً علىّ - بعد إذ أمضيت عاماً أو عامين كمزارع فى هذه الأقاليم - أن يجىء الى أحد الرئيسين الوطنيين فى صبيحة أى يوم، يخبرنى أن أسداً أو فهداً قد تناول أكلته من لحم البقر . . . كان خبر الغزوة يحمل إلى فى الصباح الباكر ، ولم يمض على فواق من النوم نصف ساعة ، وبينما أكون جالساً أتناول الشاى ، قبل أن أخرج فى جولة التفتيش حول المزرعة كلها . .

فاذا مادعيت لمعاينة ماشية قتلها أحد الوحوش ، فانه يكون لزاماً على أن أؤجل سائر الأعمال الأخرى ، حتى تقر على رأى فى قتلها . وما تكاد الدعوة تصلنى حتى أسرع فآخذ بندقية وبعضاً من الرصاصات ، وأقفز على دراجة ، وأجرى قاطعاً الطرقات الضيقة المتعرجة من الغابة حتى أصل إلى المنطقة المقصودة ، حيث يكون الرئيس الوطنى قد ترك أحد وكلائه ينتظر قدومى ؛ وأترك دراجتى عند هذه المنطقة ، وتحت إرشاد الوكيل الوطنى أسرع خلال الأشجار إلى حيث الماشية الميتة التى تكون نصف مأكولة . . .

وقلما وجدنا القاتل فى مكان الجريمة . . . ذلك لأن أسود وفهود هذه الأقاليم من عادتها أن تسرع إلى مآويها النهارية ، ما إن تظهر خيوط الفجر الأولى . وعلى كل حال ، فقد كنت أتقدم فى حذر ، والبندقية فى يدى على استعداد، وذلك فى حالة ما إذا كان القاتل فى مكمن مجاور . . . ويمكن أن تصل إليه طلقات الرصاص .

والآن فهأنذا والدليل الوطني قد وصلنا إلى حيث مكان الجناية التي حدثت في الليلة الماضية، ففي وسط دائرة من الأغصان المتكسرة والملطخة بالدماء، وقد تناثرت الحشائش من تحته، وجدنا بقايا القتيل . . أما القاتل فقد غادر المنطقة كلها . . .

واتجهنا بأنظارنا إلى الأرض، عسانا نجد أثراً للقاتل نتبعه... ولكن من الصعب أن نجد مثل هذا الأثر وسط حشائش نامية عالية، وأوراق أشجار متساقطة، وأغصان متدلية حتى الأرض لتختلط بما عليها . . . فلم نعثر بعد التي والتيا إلا على أثر ضئيل، هو بعض حشائش هدلها عدو الأسد المحصور، مما أثبت لنا أنه قد فر وانتهى الأمر . . . ولكنا اتبعنا هذا الأثر الباهت مسافة، وكنت قد عرفت بالتجربة أنه لم يعد هناك من أمل، في هذه المرة كما في المرات السابقة المشابهة، في توجيه رصاصة إلى صدر هذا القاتل الأثيم، وكنت أعرف أن باستطاعته أن يشعر بقدومنا، قبل أن تحين لنا فرصة رؤيته، فما ينى حتى يقفز قفزة القطط الصامتة إلى مخابىء الغابة العميقة . ولقد ثبت هذا قطعاً بعد إذ تتبعنا الأثر أيضا هذه المرة بدون جدوى. ومن هنا فقد أعطيت الكلمة بالعودة والانصراف عن مطاردة القاتل .

ولو لم يكن من عادة تلك الحيوانات المفترسة أن ترجع إلى حيث تركت الفريسة في مساء الليلة التي تلي الافتراس، لكان من أصعب الأمور على المزارع الروديسي أن يقتل الأسود والفهود التي تتسلط على قطعانه، ولكن هذه العادة تسهل عليه العمل كثيراً .

أما كيف ينتقم من القاتل، فانه يكون بإحدى طرق ثلاث :

الأولى ـ وهذه في الليلة التي تعقب الحادث ـ بأن يجلس المزارع بيندقيته في يده، على شجرة قريبة من مكان الحادث، ينتظر عودة هذا المجرم التابعة في الاختفاء !!

الثانية ـ بنصب الشراك لصيده.

الثالثة ـ بتسميم الجثة بالأستركنين.

فأما الطريقة الأولى فقلما تأتي بالنتيجة المطلوبة، نظراً لأن الرماية بالليل، مهما تكن مهارة الرامي، تكون متعبة وبغير جدوى، وخاصة لأن قاتل الماشية هو أكثر الحيوانات المتوحشة فطنة وحذراً. وهو ما إن يشعر، ولو شعوراً سطحياً بسيطاً بوجود الصياد، حتى يقفز قفزاته الصامتة ويغادر المكان، قبل أن يكون الصياد قد أحس اقترابه .

أما الطريقتان الأخريان، فمفيدتان كثيراً عن الطريقة الأولى . والطريقة الأخيرة لم أكن في الحق أميل الى استعمالها بوطبعاً فكل هواة الصيد لا يميلون إلى استعمال السم في صيد الوحوش، ولكني كمزارع روديسي أحمي ماشيتي، كنت استعمل هذه الطريقة، إذ أنها أضمن الطرق الثلاث للقبض على القاتل . . بل للاقتصاص منه حالا . . .

وصباح الليلة التالية، يزور المزارع مكان الجريمة مرة أخرى، ففي بعض الأحيان

كنت أجد القاتل ميتاً فى نفس المكان ؛ وفى بعض الأحيان لا يؤثر السم التأثير المطلوب . ومن حيث الشباك المسلحة فانها قد تجرح الوحش ولا تقتله فى الحال. وهنا يأتى أخطر الأدوار فى حياة المزارع . فانه يصبح من الواجب عليه أن يطارد الوحش بكل الطرق الممكنة ليقتله . وما عرفت فى حياتى عملا ألذ من مطاردة وحش كاسر مجروح هائج فى وقت معاً ، إلى داخل الأحراش المترامية ؛ ذلك أن الوحش ينتهز الفرصة الأولى ، فيختفى بأى غطاء من غصون الأشجار المتدلية أوراقها ، وهو فى الأعم الأغلب يبقى مختبئاً حتى يصير الصياد منه على مبعدة بادرات ، ثم تدور المعركة الوحشية . وصيد الوحوش فى الحق يحتاج الى أعصاب هادئة ، ومهارة فى الرماية بسرعة ، وفى الاتجاه الصائب . وقد حدث لى أنا شخصياً أن صدت وحشاً اشتبك معى فى قتال ، لم ينجنى منه إلا فوهة البندقية .

بوليس متطوع

وفى تلك الأقاليم الشاسعة لا يمكن إلا أن يكون رجال البوليس النظامى فيها قليلين ، والمسافة بين درك كل واحد والآخر كبيرة أيضاً . ومن هنا فان على المزارع الرودیسى أن يأخذ على عاتقه من الأعباء الكثيرة ، ما هو ملقى فى الممالك المتمدنة على حماة القانون الرسميين. وليس هذا أمراً خارقاً للعادة ؛ فالمزارع الرودیسى فى منطقته يسمع بالجريمة التى تقع فيها وبجوارها ؛ قبل أن يسمع بها رجال البوليس النظامى الذين هم على مبعدة بعض من الأميال ؛ وهو إذا هب للضبط بسرعة ، فانه يستطيع أن يقبض على الجانى ويسلمه للدرك ؛ قبل أن تساعده الظروف والحيل على النجاة ؛ وعدم الوقوع تحت طائلة القانون . والمزارع فى قيامه بدور رجل البوليس المتطوع ، يعاونه رجال القبيلة التى حدثت بها الجريمة.

وقليل من المزارعين يعنون بتقديم رءوسهم ضحية ، فى سبيل القبض على مرتكب بعض الجنح الصغيرة ، مثل القبض على الأهالى الفارين من دفع الضرائب ، وما شابه ذلك. ولكن فى حالة ما يكون الذنب سرقة أو قتلا ، فقليل هم الذين لا يقدمون رءوسهم فى سبيل القبض على الجانى المسىء ، وإرساله إلى أقرب نقطة بوليس تحت حراسة وطنيين مسلحين. وفى بعض الأحيان يتم القبض على المجرم بسهولة ؛ ذلك لأنه يعجز عن الالتفات الى كل ناحية يمكن أن يتقدم منها من يقبض عليه. وفى أحيان أخرى فان عدم الاسراع ، أو الخطأ فى التصرف السريع ، يمكن الجانى من الفرار .

وفيما يلى أسرد لك حادثين وقعا فى مزرعتى بالذات ، لأبين لك كيف تكون الدعوة الفجائية للقيام بدور رجل البوليس المتطوع :

حدثت جريمة قتل فى إحدى القرى الوطنية المجاورة ، فعلى الرغم من أنها حدثت قبل أن أعرفها بليلة فقط ، فان كل العمال الوطنيين علموا بها عن طريق جهازهم التلغرافى العجيب

« تلغراف الغابة » مباشرة؛ وبعد إذ أسدل الظلام سدوله جاء إلى منزلى أحد الرؤساء الوطنيين عندى ، وقال لى إن الجانى قد دخل فى حدود القرية ، على أنه صانع أجير غير ثابت مقر العمل ، وإنه عائد إلى منبته فى الحدود الانكليزية البرتغالية ، وإنه قد طلب منحة : ماء وطعاماً . فاحتجزه الآخرون يحادثونه قليلا فى انتظار وصولى ؛ هنا كان واجباً علىّ أن أذهب إليهم فأقبض على الرجل ، فوضعت مسدساً فى جيبى كنوع من الاحتياط ، وأسرعت إلى حيث كان الأهالى فى انتظارى .

وجدت الجانى جالساً إلى إحدى النيران المتقدة التى تدفىء مابين الأكواخ . فكان دخول المفاجىء عليهم ، وتجمهر الأهالى علىّ ، مدعاة له إلى اليأس والاعتقاد بأن الفرار قد أصبح أمراً مستحيلا . ودفعت المجرم أمامى إلى أحد مخازن الأطعمة ، وأغلقت عليه الباب جيداً حيث يقضى الليل ، ووضعت فى خارج المخزن قوة مسلحة وطنية .

وفى اليوم التالى عملت الترتيبات اللازمة لتسليم المجرم إلى أقرب نقطة بوليس ، وهى على مبعدة خمسة وعشرين ميلا ؛ فأخذت اثنين من أشد رجال مزرعتى الوطنيين ، وجعلت منهما حارسين ، سلح أحدهما ببندقية قديمة ، وسلح الآخر برمحين . وقد طلبا إلى بالحاح أن يوثق المجرم جيداً قبل أن يخرج من المخزن ، معللين طلبهما بأنه قد يفر منهما فى الطريق ؛ ولكنى عارضتهما وأفهمتهما أنهما من ضخامة الجسم وعظم القوة ومتانة السلاح ، بحيث يكون فى استطاعتهما منع أية محاولة منه للهرب .

وبعد يومين أو ثلاثة قابلت رئيس البوليس النظامى لهذه المنطقة ، فأخبرنى بوصول المجرم . وظهر أن الوطنيين لم يعملا بأمرى ! فانهما بعد أن أصبحا فى مأمن من أن أراهما ، أوقفا الرجل وطلبا إليه أن يطيعهما طاعة عمياء ويسير كما يريدان . وأوثقا يديه الى ظهره ، وأوثقاه بوثاق ثقيل ، وعند ما وصلوا إلى المخفر كان المجرم فى حال يرثى لها . فقد شدت يداه إلى ظهره موثقتين ، ولف الحبل على جسده لفاً جعله يبدل خطواته بصعوبة كبيرة ، حتى كان الرائى إليه يخاله تمثالا مصرياً قديماً .

وحادثة أخرى .... فقد كانت هناك عدة سرقات تحدث فى القرى المجاورة ؛ وكان طعام وبطانيات وملابسات وغير ذلك من اللوازم المنزلية يسرق من أكواخ الأهالى .

وحدث مرة أو مرتين ، أن رؤى اللصوص فى الليل ، وهم يطيرون بمسروقاتهم ولكنهم ما ينون حتى يختفوا عن الأنظار ويختفوا بين الأدغال والأحراش.

ففي ذات يوم جاء إليَّ أحد المواطنين ـ الذين يشتغلون بتربية الماشية في مزرعتي ـ يخبرهام وسار في وقت معاً ، ذلك أنه في أثناء بحثه عن حيوان ضال بين سلسلة من التلال القائمة في إحدى زوايا المزرعة ، اكتشف مخبأ ، نعم المخبأ !! ، وهو كهف تبين عليه أمارات العمران .. فاعتقد على الفور أنه المخبأ الذي يختبيء فيه رجال عصابة اللصوص الذين روعوا الأمن في تلك الأيام. فخرجت مع هذا الوطني لأرى اكتشافه ، فكان المكان غير معمور في تلك اللحظة ، ولكن كان به كثير من العلامات التي تبين أنه مأهول من أمد طويل .

وعند غروب الشمس اقتربت من ذلك الكهف مرة أخرى ، يصحبني اثنان من خيرة مواطني الأشداء . فكان المكان ما يزال خالياً ، فأخفينا أنفسنا ، قرب الكهف ، وبدأنا ننتظر عودة اللصوص الذين لديهم فرص كثيرة تسنح لهم ليجوسوا في الليل خلال المزارع والطرقات كما يريدون . وقد لاحظت مدخل الكهف مظلماً معتماً ، اللهم إلا ما ينبي عنه من ضوء نجوم السماء الأفريقية المتلألئة في أغلب الأيام .

وسمعنا صوت حجر يتدحرج من أعلى التل ، وتبع ذلك صوت أغصان تفرق وتفصل عن بعضها البعض ، فاعتدلنا في مجلسنا وأنصتنا .... ثم كان صخب آخر .... ثم ظهر شبحان على فم الكهف وقد انعكست بعض الأضواء القائمة على الحراب والبلط التي يحملان ، وكان معهما حبل وطئ ربط فيه كبش حي ، مأما شاكياً في تلك اللحظة متألماً ، وكان الآخر يحمل حزمة من الغنائم المتنوعة .

وهنا أطفأت المصباح المخفي ، ودفعت البندقية إلى الأمام في وجهيهما ، وصرخت في الوطنيين طالباً إليهما أن يهجما عليهما . . . وقد كانت اللحظات القليلة التالية خطرة جداً ، فقد تناثرت الحزم والخراف والحراب وبلط القتال ، في كل الاتجاهات ، وهجمت علينا من فم الكهف شراذم عديدة من اللصوص ، ومن ناحية المزرعة كثير من الوطنيين الراغبين القبض على من أزعجوا أمنهم ، وبطريقة غريبة وسط هذا الزحام استطاع اللصان أن يفلتا مني ، ويهرعا خائفين في ظلام دامس بين الأدغال ، تشيعهما طلقات من بندقيتي لم تصبهما بحكم الظلام ، وإنما كان يسمع صوت احتكاكها بأوراق الشجر . وفشلنا في القبض على العصابة ، ولكن الأثر الذي أردناه ، تحقق بشكل واضح . فقد بطلت السرقات ، إذ اعتقد اللصوص أن حياتهم أصبحت مهددة بالخطر .

مهندس وبناء ! !

وعلاوة على كل تلك المهام العديدة التي ألقت بها الطبيعة على عاتق المزارع الروديسي فهناك صناعات أخرى لابد له أن يكون عارفاً وملماً بها ولو إلماماً بسيطاً ، من أجل ألا تتعطل

الأعمال فى مزرعته ، مع أنها بعيدة كل البعد عن واجبات المزارع العادى فى الممالك الزراعية المتمدنة . ففى الأقليم الذى تدور فيه كل الآلات الزراعية بواسطة الدوارين من الوطنيين ، لا بد أن يكثر حدوث كسر فى هذه الآلات ؛ وعلاوة على الخسارة التى تلحق بصاحب المزرعة من جراء ما سيدفعه فى إصلاحها ، فانه لايستطيع أن يرسلها إلى أقرب حداد أخصائى ليعالج الكسر ، لأن ذلك معناه تعطيل العمل أسابيع ، علاوة على المصاريف الباهظة التى يطلبها . ففى حالة ما تنكسر سكين محراث ، وهى هناك عبارة عن قضيب من الحديد سمكه بوصتان كاملتان ، فان من الواجب على المزارع أن يصلحها بنفسه فى الحال ، وفى (ورشته) الخاصة بالمزرعة . وليس مجهوداً بسيطاً ذلك الذى يبذله المزارع فى هذه السبيل ، نظراً لبداءة الآلات التى يستخدمها فى إصلاحها ؛ وهو فى بعض الأحيان يضطر إلى صنع بعض الأجزاء من جديد ، من قطع قديمة يصادف أن تكون عنده .

وعلى المزارع أن يشرف بنفسه على صناعة الطوب فى مزرعته ، وأن يكون ملماً بالعناصر التى يصنع منها ، ذلك لأن كل الطوب اللازم للمبانى يعمل فى داخل المزرعة ؛ وإذن فعليه أن يكون ضراباً كما عليه أن يكون بناءً كذلك . وأى وطنى غير مدرب على البناء النظامى لايستطيع أن يبنى أكثر من كوخه الخشن القذر المصنوع من الحشيش وشجيرات البرك . كما أن على المزارع أن يكون سباكا ماهراً ، وميكانيكيا عارفا بدق الطلمبات وما يتبع ذلك . كل هذه واجبات يتعرض لها المزارع الروديسى فى كل يوم . ولكنك قد تسأل : كيف يحصل المزارع على معلوماته فى كل هذه المهن والصناعات ؟ والاجابة ميسورة فى المثل القديم الذى يقول : إن « الحاجة أم الاختراع » ، فالمرء عندما يعيش بعيداً عن مساعدة كل الاخصائيين فى شتى الحرف والصناعات من حدادين وبنائين وماشابههم ، فانه لايلبث أن يتعلم كيف يقوم بعمل هذه الاشياء لنفسه ، ويحصل على المعلومات التى لا يهتدى اليها من المزارعين الآخرين الذين يجاورونه . وهو فى بادىء الأمر يعمل غلطات كثيرة ولكنه بالمزاولة يأتى فى النهاية بالتمام .

وتسطع الأضواء فى نوافذ البيت ما إن يصل اليه صاحبه ؛ وما إن يخط إلى الفيرانده حتى يسرع خادم المطبخ فيقدم له ما يذهب عنه عناء النهار كله « ويسكى غروب الشمس » . . . !!

والآن فهاهى ذى الأربع وعشرون ساعة التى للمزارع الروديسى قد وصفتها لك .. ومثل هذا اليوم هو عنده يوم عادى يسير على نظام عادى .. ولو أنه يوم مسل بالاشياء التى لاينتظر حصولها للرجل العادى ، وهو يعلم أن الغد سوف يحمل اليه تشكيلة أخرى من الحوادث . تشكيلة تجعل حياة المزارع الروديسى الهادئة مستساغة بل تجعل فيها لذة أخرى وفيها متعة ... !

[عن : مجلة المجلات الانكليزية]